مقدمة

تتناول هذه الدراسة جانباً من جوانب النقد العربي فترْصد زاويةً محدَّدةً من ميدان الحركة النقدية في القرنين الرابع والخامس الهجريين، وهي النقد التطبيقي، والهدف العامُّ من ذلك هو أن تؤصِّلَ هذا النوع من النّقد، وتكشف عن أنشطة النُّقّاد المختلفة في إطارٍ من الوصف والتحليل والتركيب والمقارنة، بما يخدم نقدنا العربي القديم.

ولا رَيْبَ في أنَّ اقتصار البحث على مُدَّةٍ معيّنة من تراثنا النّقدي العربي الواسع يجَنِّبُهُ الوُقوع في مَغَبَّةِ التعميم والتعسُّف في إطلاق الأحكام، على أنَّ هذا لا يعني أنَّ البحث قد أحاط بالنقد التطبيقي عند العرب في بيئاتهم المختلفة خلال هذين القرنين، وبحسب هذه الدراسة أنها ألقت ضوءاً عليه من خلال أمثلة ونماذج تحكم غيرها.

وقد وَقَعَ الاختيار على هذا الموضوع لأسبابٍ كثيرةٍ أهمُّها: أنَّ الإدراك الواعي لِما كان الناقد التطبيقي يصنعه هو أول ما يقتضيه الاهتمام الجدّي بدراسة النقد العربي؛ وأنَّ تَلاقُحَ الثَّقافات الوافدة والثقافة العربية الإسلامية بدأ يعطي ثماراً ناضجةً في بداية القرن الرابع، فظهرت كتبٌ تأثّر أصحابُها بالثقافة الوافدة كَنَقد الشعر لقُدامةَ بن جعفر، وأنَّ هذين القرنين شهِدَا ظهورَ أبرز النقاد التطبيقيين، وفيهما صُنِّفَتْ أهمّ الدراسات التطبيقية في التراث النقدي، ككتاب الموازنة للآمدي والوساطة للقاضي الجرجاني، والمنصف لابن وكيع، وقراضة الذهب

لابن رشيق، والمختار من شعر بشار للتجيبي ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني؛ وأنَّ الاطّلاع على هذا النقد التطبيقي يحقِّق فائدة خاصّة لصاحب البحث، لأنَّه يشكّل له ذخيرة هامّة تعينُه على أبحاثه المستقبلية المتعلقة بالنقد القديم الذي اختارَهُ اختصاصاً لنشاطه العلمي والفكري، ويحقق فائدةً عامّة، إذْ يمهّد الطريق أمامَ الباحثين لدراسة النقد التطبيقي ضمن بيئةٍ ومُدَّةٍ محدَّدتين، ويضع معالم في طريق مجهولة يسهل بها العبور لمن يأتي من بَعْد.

وتأتي أهمية هذا الموضوع من أهدافه التي يتوخَّاها، ومن أهمِّها: بيان مدى التطابق بين النقدين النظري والتطبيقي عند العرب، على الرَّغم من أنَّ التفريق بين النظرية النقدية وتطبيقها مصطنع، ولكنَّهُ ذو فائدةٍ كبيرةٍ، لأنّه يوضح المبادئ التي يبني عليها النُّقّادُ أحكامَهم، ويوضّح طريقتهم ومنهجهم في أثناء العمليّة النقدية. ومن أهدافه تحديد الأساس المعرفي وحقول العلم التي منحت الناقد مَلَكتَهُ النقدية وكَوَّنَتْ ذوقَه الأدبي.

ومنها تَعرُّف شخصية الناقد التطبيقي من خلال نقده وإيضاح ضروب المهارة التي يتطلَّبُها متميزاً في ذلك من الناقد النظري.

وكذلك الوقوف على أدوات الناقد التطبيقي المختلفة، وأيضاً معرفة الأصول العامّة للنقد التطبيقي المتفقة مع الأصول العامّة لبعض علوم العرب؛ بُغْية وصف المكانة التي يتسنَّمها هذا النقد في البنيان المعرفي العربي؛ ومنها تمييز مناهج النقاد التطبيقيين؛ ذلك أنَّ الباحثين في شَتَّى فروع المعرفة يسعون إلى بيان مناهجها المختلفة لتسهيل وصول القُرَّاءِ والباحثين إلى أصولها التي تقوم عليها. ومنها معرفة مَدَى استيعاب النُّقّاد للنّصوص الإبداعيّة في عصرهم أو قبله، وبيان أثر نقدهم في الحركة الإبداعيّة المعاصرة والتالية.

و قد قسم البحث إلى ثلاثة أبوابٍ وخاتمة:

أمّا الباب الأول فينقسم إلى ثلاثة فصولٍ، تناول أوَّلُها النقدَ التطبيقيَّ مصطلحاً وبذوراً ومصادر، وثانيها شخصيَّة الناقد التطبيقي وأدواته، وثالثها النَّصّ بوصفه ميداناً للدَّرْس النقدي.

وأمّا الباب الثاني فينقسم إلى خمسة فصول مخصَّصةٍ لمناهج النقد التطبيقي لدى نقّاد القرنين الرابع والخامس، فالأوّل للمنهج الوصفي، والثاني لمنهج المقارنة، والثالث للمنهج التاريخي، والرابع للمنهج الاستقرائي، والخامس للمنهج التحليلي.

وأمّا الباب الثالث فينقسم إلى ثلاثة فصولٍ تهدف إلى دراسة توجُّهات أولئك النقاد التطبيقيين؛ يدرس الأولُ النقد اللغوي عندهم، والثاني النقد الجمالي، والثالث النقدَ الأخلاقي والاجتماعي.

وتتحدَّث الخاتمة عن سمات النقد التطبيقي العامّة، وأهمّ نتائج البحث.

اعتمدت الرسالة مجموعة من المناهج منها الاستقرائي في جمع المادة النقدية، وكان الاستقراء موسعاً وليس تاماً، وكذلك المنهج التحليلي إذ وضع الباحث معايير التحليل المادة النقدية اتكأ فيها على قضايا النقد القديم إضافة إلى ما توصلت إليه الدراسات التي تبحث في المناهج وتؤصل للعلوم المختلفة، واعتمد أيضاً المنهج الاستنباطي في عرض نتائج كل فصل من فصول الرسالة.

وتقتضي الموضوعية والأمانةُ العِلميَّةُ الإشارة إلى الدراسات النقدية التي خصَّصها أصحابُها للنقد التطبيقي عند العرب، فقد وقفتُ على اثنتين قبل البدء بهذا الموضوع، هما: «المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث» للدكتور محمد عبد الرحمن شعيب، و«النقد التطبيقي والموازنات» لمحمد الصادق عفيفي،

فوجدت أن الدراسة الأولى جعلت المتنبي محوراً للبحث وهدفاً له، فتتبَّعتْ آراء النقاد في شعره. وهذا لا يقدم صورةً كافية للنقد التطبيقي، ووجدت الثانية تبحث في العاطفة والخيال والمعاني والموسيقى لتجعل ذلك تمهيداً لإجراء موازناتٍ بين قصائد للبحتري ولأحمد شوقي وللشاعر الفرنسي «لامارتين»، ولكنَّها لم تتناول النقد التطبيقي بالتحليل والوصف، حتّى إنَّها خَلَتْ من تعريف النقد التطبيقي نفسه.

ووقفت في أثناء إنجاز الموضوع على دراسة بعنوان «النقد العربي التطبيقي بين القديم والحديث» للدكتور طه مصطفى أبو كريشة، وقد طبعت في لبنان سنة ١٩٩٧، وتقع في بابين رئيسين، أوَّلهما مخصّص للتطبيق عند القدماء في سِتٍّ وسبعين صفحةً متوسّطة الحجم، عالج نقد البيت والقصيدة ونظرية عمود الشعر. وثانيهما للتطبيق عند المحدَثين؛ وهي دراسةٌ تمتاز بسلاسة أسلوبها وحِرْص صاحبها على الدفاع عن النقد القديم وتمكّنه من مادَّته وحُسن التَّنسيق والترتيب، غير أنَّها خَلَتْ من أمورٍ مُهِمَّةٍ كتعريف النقد التطبيقي والحديث عن شخصية الناقد التطبيقي وأدواته ومنهجه وتوجُّهِه وخصائص نقده.

كما وقفت على عنواناتِ عددٍ من الرسائل الجامعية في المغرب العربي اهتمّت بالنقد التطبيقي في عصور مختلفة، من خلال دليل الأطروحات والرسائل الجامعيّة المطبوع في جامعة محمد الخامس وهي: «النقد الأدبي التطبيقي في العهد السعدي من خلال كتب الشروح: معالجة في التراكيب» لخالد دادس، ونوقشت عام ١٩٩١م، و«النقد التطبيقي للشعر بالمغرب خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر» لعزيز إبراهيمي. سجلت في كلية الآداب بجامعة الرباط عام ١٩٨٩م، و«النقد التطبيقي للشعر في المغرب من خلال

شروح القرنين ١٣ و١٤هـ» لشريفة حافظي علوي، سجلت في الجامعة نفسها عام ١٩٩٢م.

ووجدت الأستاذ أحمد الشايب يذكر في تقديمه لكتابه «أصول النقد الأدبي» أنه عازمٌ على تأليف كتاب للقُرَّاء في النقد التطبيقي، ولم أقف على كتاب له يتعلَّق بهذا الشَّأن.

ولا شكَّ في أنَّ قِلَّةَ الدراسات السابقة التي وقفت عليها ممَّا جعل الطريق إلى إنجاز الموضوع عَسِرَة. يضاف إلى ذلك عجزي عن الوصول إلى بعض الدراسات التي تتصل بالموضوع بعد طُولِ تَطَلُّبٍ وانتظار، وكثرة الشواهد والأمثلة كثرةً يصعُب حصرها، وأنَّ البحث عن نقاط الالتقاء والتمايز بين مجموعة كبيرة من النقاد الذين يتميز كلٌّ واحد منهم بشخصيّة منفردة أمرٌ يستَدْعي الخوضَ فيما أنتجَهُ كُلُّ واحدٍ منهم وفيما كُتِبَ عنه، وأنَّ بعضَ جوانب البحث من الغِنى بمكان جعلها موضوعاتٍ قائمةً بذاتها لدراسات واسعة ومتعددة كالنقد الجمالي، والنقد الأخلاقي، والنقد اللغوي، والعاطفة، والصورة الشعرية وغير ذلك، في حين أنَّ المجال لها في هذا البحث محدَّدٌ جدّاً، وبالمقابل هنالك جوانبُ أساسُها النظري من الضّيقِ بمكان جعلها صغيرة الحجم ولو شئتُ تضخيمَها لكانَ على حساب التَزَيُّد بالشواهد والأمثلة.

وبعد، فهذا عملي، أخلصت فيه نيَّتِي، وبذلت فيه جهدي، مُجَدِّداً العهدَ بهذا الموضوع، فإنْ أَصَبْتُ فمن فضل الله توفيقه، وإنْ أخطأت فمن عجزي وقصوري، والنَّقْصُ مُسْتَوْلٍ على جملة البشر... والله الموفق وهو الهادي إلى الصواب...